﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في نكران الإيمان بأي معنى كان ممن ألقى إليكم السّلام، ولا يختص ذلك الابتغاء البغي محظورة هذه القولة بنفسه، فإنما هو أنحس دركات الباعث لهذه القولة، ومنها كأخفها عدم الاطمئنان بصدقه، وحتى إن كان عالم ذلك الكذب ولكنه يعامل بما يقول كما قال الرسول ﷺ: «إنما كان يعبر بلسانه»!

ثم وحين تبتغون عرض الحياة الدنيا ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ في الأولى والأخرى، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

ومن ثم ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾: كذلك البعيد البعيد الذي أنتم عاملون الآن ابتغاء الحياة الدنيا في جاهليتكم القريبة الغريبة من تسرّع ورعونة في الغنيمة ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ ابتغاء رضوان الله في حرب وسواها.

و﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي تجدونه ممن ألقى إليكم السّلام ﴿كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ - ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أن تقبَّل منكم هذا الإسلام الخاوي عن الإيمان، بل وإسلام النفاق حيث أجرى فيه بمظاهر الإسلام ظواهر أحكام الإسلام.

و﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ تخفون إسلامكم عمن تعاشرونهم من الكفار طيلة العهد المكي[1]، فلعل الذي ألقى إليكم السّلام كان مسلماً من

= أضم فخرجت في نفر من المسلمين فيهم الحارث بن ربعي أبو قتادة ومحلم بن جثامة بن قيس الليثي فخرجنا معه حتى إذا كنا ببطن أضم مرّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له معه متيع له وقطب من لبن فلما مر بنا سلّم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم بن جثامة لشيء كان بينه وبينه فقتله وأخذ بعيره ومتاعه فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر نزل فينا القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ...﴾ وفيه عن أبي حدرد الأسلمي نحوه بزيادة: فقال النبي ﷺ: أقتلته بعدما قال آمنت بالله؟ فنزل القرآن.

(١) الدر المنثور عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ سرية فيها المقداد بن الأسود فلما =

ذي قبل يكتم إيمانه - كما كنتم - فلما واجهكم في الحرب ألقى إليكم السّلام.

= أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا وبقي رجل له مال كثير لم يبرح فقال: أشهد أن لا إله إلّا الله فأهوى إليه المقداد فقتله فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلّا الله والله لأذكرّن ذلك للنبي ﷺ فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله إن رجلاً شهد أن لا إله إلّا الله فقتله المقداد فقال: ادعوا لي المقداد فقال: يا مقداد أقتلت رجلاً يقول لا إله إلّا الله فكيف لك بلا إله إلّا الله غداً؟ فأنزل الله هذه الآية إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ قال فقال رسول الله ﷺ للمقداد: كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل.

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان الرجل يتكلم بالإسلام ويؤمن بالله والرسول ويكون في قومه فإذا جاءت سرية رسول الله ﷺ أخبر بها حيّه يعني قومه وأقام الرجل لا يخاف المؤمنين من أجل أنه على دينهم حتى يلقاهم فيلقي إليهم السّلام فيقولون: لست مؤمناً وقد ألقى السّلام فيقتلونه فقال الله تعالى: «... يعني تقتلونه إرادة أن يحل لكم ماله الذي وجدتم معه وذلك عرض الحياة الدنيا فإن عندي مغانم كثيرة والتمسوا من فضل الله...».

وفيه أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد والنسائي عن عقبة بن مالك الليثي قال بعث رسول الله ﷺ سرية فغارت على قوم فاتبعه رجل من السرية شاهراً فقال الشاذ من القوم: إني مسلم فلم ينظر فيما قال فضربه فقتله فنمى الحديث إلى رسول الله ﷺ فقال فيه قولاً شديداً فبلغ القاتل فبينا رسول الله ﷺ يخطب إذ قال القاتل: والله ما قال الذي قال إلّا تعوّذاً من القتل فأعرض رسول الله ﷺ عنه وعمن قبله من الناس وأخذ في خطبته ثم قال أيضاً: يا رسول الله ﷺ ما قال الذي قال إلّا تعوّذاً من القتل فأعرض عنه وعمن قبله من الناس وأخذ في خطبته ثم لم يصبر فقال الثالثة: والله يا رسول الله ما قال الذي قال إلّا تعوّذاً من القتل فأقبل رسول الله ﷺ تعرف المساءة في وجهه فقال: إن الله أبى علي لمن قتل مؤمناً ثلاث مرار.

وفيه أخرج الشافعي وابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن المقداد بن الأسود قال قلت: يا رسول الله أرأيت إن اختلفت أنا ورجل من المشركين بضربتين فقطع يدي فلما علوته بالسيف قال لا إله إلّا الله، أضربه أم أدعه؟ قال: بل دعه، قلت: قطع يدي، قال: إن ضربته بعد أن قالها فهو مثلك قبل أن تقتله وأنت مثله قبل أن يقولها، وفيه أخرج الطبراني عن جندب البجلي قال: إني لعند رسول الله ﷺ حين جاء بشير من سريته فأخبره بالنصر الذي نصر الله سريته وبفتح الله الذي فتح لهم قال: يا رسول الله ﷺ بينا نحن نطلب القوم وقد هزمهم الله تعالى إذ لحقت رجلاً بالسيف فلما خشي أن السيف واقعه وهو يسعى ويقول إني مسلم إني مسلم قال فقتلته؟ فقال: يا رسول الله إنما تعوَّذ فقال: فهلا شققت عن قلبه فنظرت أصادق هو أم كاذب فقال: لو شققت عن قلبه ما كان علمي هل قلبه إلّا =

و﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ إسلامكم، إنكم كنتم تلقون السّلام على عدوّكم حين تسالمونه، فيقبل منكم كما تقبلون منه دونما تكذيب ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ باستمرارية هذه السنة الطاهرة بتكملة إسلامية.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ في هذه الزوايا الأربع ﴿كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ إقراراً واستمراراً لصالح الغابر، وتصفية للحاضر، إذاً:

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ - ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ثم امضوا حيث تؤمرون دونما تسرُّع واستعجالٍ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: سواء ما تعملون من قبل، أم حالياً وفيما بعد، فعليكم إخلاص الطويات والنيات لله وفي سبيل الله.

فلقد كان الدرس الحاضر تكملة للدرس الغابر: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ فمهما لم يكن القاتل خطأ محظوراً خارجاً عن أصل الإيمان، ولكنه خارج عن كماله، حيث إن صالح الإيمان لزامه التبين في كلّ ضرب من ضروب الحركات الإيمانية، خارجة عن إفراط المفرِّطين وتفريط المفرِطين، جامعة بين الشعار الإسلامي وشعوره، فلا شعار ما لم يكن شعور، ولا شعور تاماً ما لم يكن شعار، بل هو أمر بين أمرين، ووسط بين الجانبين، تبيُّناً صالحاً سليماً عن عَرَض الحياة الدنيا، وغرضها ومرضها.

أجل ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ بصالحة الطرق الشرعية في كلّ سلب وإيجاب، دونما اعتماد على احتمال أو ظن، بل ولا على علم أجرد من سائر التبين.

= مضغة من لحم قال ﷺ: لا ما في قلبه تعلم ولا لسانه صدقت قال: يا رسول الله ﷺ استغفر لي، قال: لا أستغفر لك فمات ذلك الرجل فدفنوه فأصبح على وجه الأرض ثم دفنوه فأصبح على وجه الأرض ثلاث مرات فلما رأوا ذلك استحيوا وخزوا مما لقي فاحتملوه فألقوه في شعب من تلك الشعاب.

ذلك وكما ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ . . .﴾[١]. فتبيُّن الحق هو الأصل الأصيل في شرعة القرآن في كلّ شارد ووارد، وقد ضمن الله لنا كلّ إراءَة آفاقية وأنفسية حتى يتبين لنا الحق ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[٢].

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾:

نرى في هذه الحلقة التربوية مواجهة خاصة لحالة خاصة في الحقل الإسلامي، يعالجها القرآن بتوجيهٍ وجيهٍ وتشويقٍ وتشديقٍ، وكما ورد في أسباب النزول، ولكن النص ليس ليختص بزمن دون زمن كما هو الدأب الدائب في القرآن كله فإنه طليق من قيود الزمن الخاص ومن ملابسات البيئة الخاصة، لأنه هدى للعالمين أجمعين طول الزمان وعرض المكان.

فكما أنه لا يستوي الضارب في سبيل الله، المتبين وغير المتبين، كذلك ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

وهنا ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طليقة بالنسبة لكل جهاد في أية سبيل من سبل الله، فكما «بأنفسهم» تعني التضحية بالنفس في سبيل الله، كذلك هيه بكل محاولة نفسية ثقافية أو عقيدية أماهيه، بألسنة أو أقلام من هؤلاء الكرام، وهنا نفهم المعني من «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء» فإن مدادهم هو الذي يمد شرعة الله في أنفسهم حتى يضحوا في سبيل الله، فلولا مدادهم هكذا ومددهم لم يكن هنالك معنى صالح لدماء الشهداء.

(١) سورة الحجرات، الآية: ٦.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

ولنأخذ هنا مثالاً كأبرزه، ماثلاً بين أيدينا طول القرون الإسلامية، هو القتال في سبيل الله والمؤمنون في ذلك الحقل ضروب عدة.

منهم المجاهد في سبيل الله بنفسه وماله وأولئك هم المفضلون بصورة طليقة.

ومنهم المخطئون في هذه السبل، جهاداً بمال دون نفس أو بنفس دون مال، أو جهاداً بهما وخطأً في قتل المحارب الذي ألقى السّلام إسلاماً أو سَلَماً، أم خطأ في كلّ من الجهادين بنفس أو بمال.

ومنهم القاعدون، وهم بين معذور وهو ناوٍ للجهاد بكامله، وغير معذور لا يضر بقعوده صف المجاهدين، أم هو مضر.

وهنا اللااستواء بين غير أولي الضرر والمجاهدين، لا يعني الاستواء بينهم وبين أولي الضرر، لا سيما وأن الضرر يعني مع العذر نفس الضرر، أن يضر بقعوده صف الجهاد.

فقد يكون القاعد عن الجهاد معذوراً عن قصور ولا يضر بقعوده صف الجهاد فهنا اللّااستواء ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وبأحرى غير المعذور ولا المضر المنطبق عليه تماماً: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ بمعنييه.

وأما إذا كان من أولي الضرر بالجهاد وهو غير معذور، أم هو معذور عن تقصير، فغير موعود بالحسنى حتى يدخل في حقل اللّايستوي.

فللمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم درجة على المجاهدين بأحدهما، ولهؤلاء درجة على المعذورين القاصرين الذين لا يضرون بقعودهم، ولهم درجة عليهم إن كانوا مقصرين في عذرهم، ولهم درجة على غير المعذورين الذين يضرون بقعودهم كشخص واحد، ولهم كذلك درجة على القاعدين الذين يُقعدون غيرهم كما يَقعدون وهم غير معذورين.

فكلما كانت الطاقة المستطاعة مبذولة في سبيل الله كانت الدرجة أعلى،

وإن كان قد يسوى بين المعذور القاصر غير المضر الذي يتحسر على عذره وقصوره حيث يؤتى أجره بنية ما نواه بفضل الله.

وقد نزلت ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ بشأن مَن دونهم وهم غير المعذورين الذين لا يضرون بقعودهم حيث تخرجهم عن الاستواء شرط عدم الضرر، إذ تعني ﴿ٱلضَّرَرِ﴾ كلا العفو والضرر، فإن عناية خصوص العذر تقتضي «أولي العذر» فالمعذورون خارجون عن اللّااستواء.

إذاً فالقعود عن الجهاد بعذر لا يسقط عن القاعد ثواب الجهاد في سبيل الله، فـ «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» ولكنه قد لا يجعله مع المجاهد على حدّ سواء.

و﴿أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ صنفان اثنان، ضرر يعذر القاعد وهو المرض وما أشبه، ثم ضرر بقعوده عن الجهاد حيث يضر الصف الإسلامي، وبينهما غير ضرر ولا إضرار بقعوده، وهؤلاء الثلاثة لا يستوون والمجاهدين في سبيل الله، كما لا يستوون هم بين أنفسهم[(١)].

(١) الدر المنثور ٢: ٢٠٣ - أخرج الترمذي وحسنه والنسائي وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه من طريق مقسم عن ابن عباس أنه قال: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النِّساء: ٩٥] عن بدر والخارجون إلى بدر، لما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم: إنا أعميان يا رسول الله ﷺ فهل لنا رخصة؟ فنزلت ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ...﴾ فهؤلاء القاعدون غير أولي الضرر فضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه على القاعدين غير أولي الضرر.

وفيه عن الفلتان بن عاصم قال: كنا عند النبي ﷺ فأنزل عليه - وكان إذا أنزل عليه دام بصره مفتوحة عيناه وفرغ سمعه وقلبه لما يأتيه من الله - قال: فكنا نعرف ذلك منه فقال للكاتب اكتب: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله فقام الأعمى فقال: يا رسول الله ما ذنبنا؟ فأنزل الله فقلنا للأعمى إنه ينزل على النبي ﷺ فخاف أن يكون ينزل عليه شيء في أمره فبقي قائماً يقول: أعوذ بغضب رسول الله ﷺ فقال للكتاب اكتب: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾.

وفيه أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿لَّا يَسْتَوِي...﴾ فسمع بذلك عبد الله =

ذلك ولكن ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تخرج القاعدين أولي الإضرار بقعودهم، أم بإقعادهم مَن سواهم فإنهم متخلفون عن مسؤوليتهم فكيف وعدهم الله الحسنى، كما وأن ﴿ٱلضَّرَرِ﴾ دون «الإضرار» قد يختصه بالعذر العاذر، إن لم يُقعده عن الجهاد في سبيل الله بنفسه إلّا العذر النفسي من عمى أو مرض أو هرم، ولا بمالهِ إلّا العذر المالي، إذا فـ ﴿أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ هم أولوا الأعذار.

ومن القاعدين أولي الضرر هم الذين ظلوا في مكة بعد الهجرة مستضعفين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، ومن غير أولي الضرر، غير المعذورين عن تلك الهجرة المجاهدة احتفاظاً على أموالهم إذ لم يكن المشركون يسمحون لهم أن يحملوا معهم شيئاً، أم توفيراً لعناء الهجرة وما فيها من مخاطر ومحاظر إذ لم يكونوا يتركونهم يهاجرون وكثيراً ما كانوا

= ابن أم مكتوم الأعمى فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد أنزل الله ما قد علمت وأنا رجل ضرير البصر لا أستطيع الجهاد فهل لي من رخصة عند الله إن قعدت؟ فقال له رسول الله ﷺ: ما أمرت في شأنك بشيء وما أدري هل يكون ذلك ولأصحابك من رخصة فقال ابن أم مكتوم: اللهم إني أنشدك بصري فأنزل الله ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النّساء: ٩٥].

وفي نور الثقلين ١: ٥٣٥ في المجمع أن الآية نزلت في كعب بن مالك من بني سلمة ومرارة بن ربيع من بني عمرو بن عوف وهلال بن أمية من بني واقف تخلفوا عن رسول الله ﷺ يوم تبوك وعذر الله أولي الضرر وهو عبد الله بن أم مكتوم، رواه أبو حمزة الثمالي في تفسيره.

وفيه عن عوالي اللآلي روى زيد بن ثابت أنه لم يكن في آية نفي المساواة بين المجاهدين والقاعدين استثنى غير أولي الضرر فجاء ابن أم مكتوم وكان أعمى وهو يبكي فقال: يا رسول الله ﷺ كيف لمن لا يستطيع الجهاد؟ فغشيته ثانية ثم أسرى عنه فقال: اقرأ ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النّساء: ٩٥] فألحقتها والذي نفسي بيده لكأني أنظر إلى ملحقها عند صدع في الكنف.

وفي تفسير الفخر الرازي ١١: ٨ قال عليه الصلاة والسّلام: إذا مرض العبد قال الله عزّوجلّ: «اكتبوا لعبدي ما كان يعمله في الصحة إلى أن يبرأ» وقال ﷺ عند انصرافه من بعض غزواته: «لقد خلفتم بالمدينة أقواماً ما سِرْتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلّا كانوا معكم أولئك حبسهم الضرر».

يؤذونهم أو يحبسون، فهم - إذاً - قعدوا عن الهجرة حافظين على إيمانهم مستسرين عن المشركين، حتى إذا وجدوا مجالات للتخلص عنهم كما في حروب، فكانوا يدخلون معهم ثم إذا وصلوا إلى المؤمنين يسلّمون ويظهرون إيمانهم.

فقعود أولي الضرر: العذر، لا محظور فيه أبداً، وقعود غير أولي الضرر فيما لا يجب النهوض فرضاً على الأعيان غير محظور ولا محبور، ثم قعود أولي الضرر والإضرار محظور محظور، والقادر على إزالة العذر ليس معذوراً في أيّ من الواجبات على المستطيعين.

ثم ﴿ٱلضَّرَرِ﴾ تعم كافة الأعذار الشرعية نفسية ومالية وحالية، فليس فرض الجهاد على كافة المؤمنين القادرين، وإنما قدر الواجب فيه أم والراجح، فـ ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

ولو أن ﴿ٱلضَّرَرِ﴾ لم تشمل عذر التفقه في الدين لغير النافرين، فالتفقه جهاد كما القتال جهاد، وهنا انقسام في واجب الجهاد بين النفر للقتال والبقاء للتفقه، ولكلٍّ أهله.

وفي كلٍّ جهاد في سبيل الله مجاهدون وقاعدون أولو الضرر والعذر وهما سواء، وقاعدون غير أولي الضرر فلا سواء وإن كان ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ ثم قاعدون أولو الإضرار خارجين عن الحسنى وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى.

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

ذلك وللمتطوعين في سبيل الله السابقين إليها درجة على القاعدين غير المفروض نفرهم، فإن للسابق إلى تحقيق الأمر الكفائي سابق الفضل والرحمة، فلكلّ سعي ومحاولة في سبيل الله قدر المستطاع عملية أم في النية والطوية، لكلّ درجة.

ولأن عدم المساواة بين المجاهدين والقاعدين قد يوحي بحرمانهم - على إيمانهم - من أجر، لذلك يدركهم النص: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فما تفضيل المجاهدين عليهم بدرجة مما يحرمهم عن حسناهم الموعودة قدر إيمانهم.

فللإيمان وزنه وقيمته على أية حال، مع تفاضل أهله حسب الدرجات عقيدياً وعملياً، نهوضاً بقضايا الإيمان وتكاليفه.

وهنا نعرف تماماً أن القاعدين ليسوا هم من المنافقين، بل هم من المؤمنين غير السابقين إلى الجهاد بفرضه الكفائي، والقرآن يستحثّهم تلافياً لذلك التقصير غير المحظور، وتلاقياً مع المجاهدين السابقين في صفوف السباق فيكونوا معهم من الرفاق.

وقد يقتسم المؤمنون وجاه أي جهاد في سبيل الله إلى قسمين اثنين كما في الآية ثم فيهم انقسامات.

فالمجاهدون في سبيل الله بين من يجاهد بنفسه دون ماله أو بماله دون نفسه أم يجاهد بنفسه وبماله فهم ثلاثة.

ثم القاعدون الذين لا يجاهدون بنفس ولا بمال هم بين معذورين، عن تقصير أو عن قصور، وغيرهم، ثم هم بين مضر بقعوده وغير مضر.

فالقاعد المعذور القاصر الذي لا يضر بقعوده جبهات الحرب أو يضر، معذور، والمعذور المقصر وغير المعذور المضر، غير معذور، وغير المعذور وهو لا يضر بقعوده هو معذور.

وهنا ﴿لَّا يَسْتَوِي﴾ هو بين ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ بمعنييه، فإن غير المعذور عن الجهاد المضر بقعوده غير موعود بالحسنى، و﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يخرج ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ غير المعذورين المضرين بقعودهم عن الجهاد.

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ وهم - بطبيعة الحال - ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ منهم بمعنييه فالقاعد عن الجهاد دون عذرٍ ولا ضررٍ لا يستوي مع المجاهد، فللمجاهد عليه درجة بجهاده، ومهما لم يترك القاعد واجبه فقد ترك الراجح في حقل الجهاد.

وقد تعني ﴿دَرَجَةً﴾ جنسها الشامل لعديدها لمكان تنوين التنكير اللّامح إلى عظم ﴿دَرَجَةً﴾.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لمكان الإيمان ونية الجهاد، ولكن السابق إليه بفرضه الكفائي حسناه أحسن من حسنى القاعد غير السابق إليه.

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ تفسيراً لـ ﴿دَرَجَةً﴾ أنها ليست قليلة صغيرة، بل هي عظيمة، وهنا تتجاوب ﴿دَرَجَةً﴾ مع ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ عظماً في عدّة وعدّة، وقد بين في:

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾:

فقد عنت ﴿دَرَجَةً﴾ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثم عنت وإياها مثلث ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ و«إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله وما بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض»[1].

(١) في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: . . ، وعن الأعمش عن عمرو ابن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: من رمى بسهم فله درجة فقال رجل: يا رسول الله وما الدرجة؟ فقال: إنها ليست بعتبة أمك، ما بين الدرجتين مائة عام.